# تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة

الاستاذ المساعد الدكتور
حسين عليوي ناصر الزيادي
جامعة ذي قار- كلية الآداب

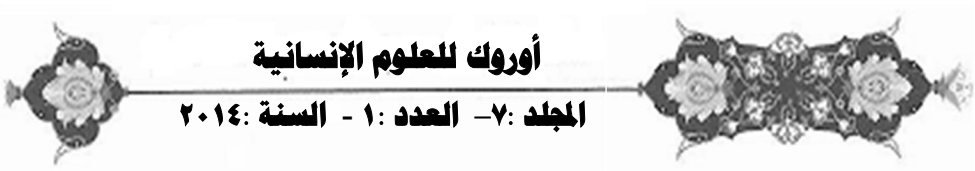

أوروك للعلوم الإنسانية
المجلد :٧- العدد :١ - السنة :٢٠١٤

# تطور الفكر الجغرافي في الحضارات القديمة

**الاستاذ المساعد الدكتور**
**حسين عليوي ناصر الزيادي**
**جامعة ذي قار- كلية الآداب**

**المستخلص**

ان الاهتمام بالبيئة الجغرافية للإنسان الى بداية تواجده على وجه البسيطة فبدأ باكتشاف المناطق الجغرافية المحيطة به ، والتعرف على أحوالها ، لذلك قيل الانسان جغرافي بطبعه ، ومنذ اقدم العصور والإنسان دائم البحث عن مزايا البيئة الجغرافية

يتمثل هدف البحث بدراسة وبيان أهم العوامل الطبيعية والبشرية المؤثرة على الفكر الجغرافي لدى الحضارات القديمة وبيان العوامل التي ساهمت في اغناء الفكر الجغرافي من خلال دراسة العوامل البيئية الطبيعية والبشرية.

تم الاعتماد على المنهج الجغرافي الوصفي التحليلي في دراسة العديد من التطورات والمتغيرات التي صاحبت التطور التاريخي لعلم الجغرافية. وفيما يتعلق بمصادر الدراسة فقد تم الاعتماد على المصادر والمراجع الرسمية والباحثين في المجال التاريخي لتطورالعلوم الإنسانية ، فضلا عن المراجع العربية المترجمة عن أقطاب الجغرافية في الدول الغربية .

أما هيكلية البحث فقد اقتضت الضرورة العلمية تقسيم البحث الى عدة محاور ، تناول المحور الأول تطور الفكر الاجتماعي في الحضارات القديمة ومنها الحضارات الأصلية والحضارات المتفرعة منها ، اما المحور الثاني فقد ركز على تنامي وتطور الفكر الجغرافي لدى العرب والمسلمين .اما المحور الثالث فقد تناول علاقة الجغرافيا بالبيئة بكل مكوناتها . وقد تبين من خلال البحث خضوع الجغرافيا كغيرها من العلوم لكثير من التغيير والتطوير كما عانت أيضاً من اختلاف العلماء والمفكرين فى عدم التحديد الدقيق لتعريفها ووظيفتها ومفهومها ، بل نجد أن لكل مجموعة من العلماء والمفكرين تعريفاً لعلم الجغرافيا .كما اتضح تميز الجغرافية بعلاقتها مع البيئة بكل مفرداتها بما فيها البيئة الاجتماعية التي تعبرعن الوسط الذي ينشأ فيه الفرد الذي يحددشخصيته وسلوكياته واتجاهاته والقيم التي يؤمن بها.

كما تبين من خلال البحث ان الشريعة الإسلامية ساهمت في بلورة الفكر الجغرافي لدى المسلمين من خلال العبادات التي تقترن بأوقات معينة من النهار والسنة فضلا عن شعيرة الحج التي شجعت على الانتقال من مكان الى اخر والتبادل المعرفي بين شعوب المعمورة .

**المقدمة (Introduction)**

اتسعت مجالات علم الجغرافية مع تطور الحضارة الإنسانية واتساع المعارف والعلوم وتحولت الجغرافية من الجانب الوصفي وهو أولى المراحل التي امتازت بها الجغرافيا ، الذي ساد منذ القرون الأولي قبل الميلاد وطوال فترات القرون الوسطى ، حيث كانت الجغرافية مجرد ممارسة للوصف اللفظي للمناطق والاقاليم التي يستطيع الانسان الوصول اليها واعطاء وصف كامل لطبيعتها البشرية والطبيعية فضلا عن ووصف علاقته بالمناطق المأهولة الأخرى المعروفة فقط . وقد خضعت الجغرافيا كغيرها من العلوم لكثير من التغيير والتطوير كما عانت أيضاً من اختلاف العلماء والمفكرين فى عدم التحديد الدقيق لتعريفها ووظيفتها ومفهومها يتمثل هدف البحث (Aim of Research) بدراسة وبيان أهم العوامل الطبيعية والبشرية المؤثرة على الفكر الجغرافي لدى الحضارات القديمة وبيان العوامل التي ساهمت في اغناء الفكر الجغرافي من خلال دراسة العوامل البيئية الطبيعية والبشرية.

اما المنهج* ، أي الادوات الاستقصائية المستعملة في استنباط واستشفاف المعلومات من المصادر المختلفة ، فهوعبارة عن منظومة من القواعد والأساليب والأفعال العقلية المنطقية العملية المستخدمة لدراسة الظواهر والقوانين وهو محصلة لتطور العلوم والمعارف وبعبارة اخرى المنهج العلمي هو مجوعة الأفعال البحثية المستخدمة لانتاج المعرفة ، وتختبر المناهج من خلال دقة ومصداقية النتائج ، وفيما يتعلق بمنهجية البحث (The Method of Research) فقد تم الاعتماد على المنهج الجغرافي الوصفي التحليلي في دراسة العديد من التطورات والمتغيرات التي صاحبت التطور التاريخي لعلم الجغرافية ، ولم يهمل البحث المنهج التاريخي Historical Method .اذ لاشك ان تكامل اللوحة الجغرافية لاي منطقة او اقليم يتطلب التحري في سبيل الإلمام بالخلفية التاريخية والأصول السكانية لتلك الدولة او الإقليم وكما يقال فان التاريخ هو " الاب الشرعي للعلوم الإنسانية ومن أقدم المجالات التي

انشغل بها العقل البشري "[١] ، فنحن جزءا من التاريخ وسنتحول يوما ما الى تاريخ ، والتاريخ كان مستقبلا لتاريخ قبلة وحاضرا لتاريخ سبقه . ولكي نفهم الحاضر لابد من دراسة الماضي ، وفهم الماضي والحاضر يساعدنا على التنبؤ بالمستقبل وإعطاء توقعات قريبة للدقة والموضوعية.

وفيما يتعلق بمصادر الدراسة (Bibliography of Study) فقد تم الاعتماد على المصادر والمراجع الرسمية والباحثين في المجال التاريخي لتطور العلوم الإنسانية ، فضلا عن المراجع العربية المترجمة عن أقطاب الجغرافية في الدول الغربية .

أما هيكلية البحث (Arrangement Research) فقد اقتضت الضرورة العلمية تقسيم البحث الى عدة محاور ، تناول المحور الأول تطور الفكر الاجتماعي في الحضارات القديمة ومنها الحضارات الأصلية والحضارات المتفرعة منها ، اما المحور الثاني فقد ركز على تنامي وتطور الفكر الجغرافي لدى العرب والمسلمين .اما المحور الثالث فقد تناول العلاقة بين الإنسان والبيئة الجغرافية .

## تطور الفكر الاجتماعي في الحضارات القديمة

ارتكز الفكر الجغرافي منذ أقدم العصور على ثلاث دعائم هي : جمع الحقائق من سطح الأرض بمظاهرها الطبيعية ، كما ان التأمل في المعلومات التي جمعت تعد من أهم المحفزات التي ساهمت في بلورة نظرة جغرافية تأملية أدت في نهاية المطاف الى رسم الخرائط والمصورات .الا ان الاهتمام بالمكونات البيئية لم تكن على مستوى واحد فبعض البيئات ساهمت في استنفار الواعز الجغرافي لما تحتويه تلك البيئات من مظاهر جغرافية متباينة في شدتها .

ان الجغرافيا عامل مؤثر فى حياة الإنسان منذ بداية ظهوره حتى الوقت الحالي ، فقد أدت الجغرافيا دوراً مهماً فى تحديد الموطن الأصلي للحضارات الانسانية فى أرجاء العالم، اذ ان الحضارات الاصلية نشأت في بيئات مهدت الطريق لوجود تلك الحضارات ، ويعود الاهتمام بالبيئة الجغرافية للإنسان الى بداية تواجده على وجه البسيطة فبدأ باكتشاف المناطق الجغرافية المحيطة به ، والتعرف على أحوالها [٢] ، لذلك قيل الانسان جغرافي

بطبعه [٣]، ومنذ اقدم العصور والإنسان دائم البحث عن مزايا البيئة الجغرافية لتجنب أخطارها وجلب اكبر ما يمكن من منافعها . وبهذا يمكن القول ان بداية علم الجغرافية اقترنت بوجود الإنسان ونشاطاته على ارض البسيطة .

**الفكر الجغرافي في بلاد وادي النيل**

ان الفكر الجغرافي في بلاد وادي النيل ارتبط بالنهر لانه أساس الحضارة التي تكونت هناك ، لذا قيل ان (نمصر هبة النيل ) . وتأسيسا على ما تقدم ظهر التقويم الشمسي وتطورت علاقات مصر بجيرانها ونشطت حركة الزراعة والتجارة وظهرت العلاقات الاجتماعية المتطورة ، وكان ذلك نتيجة للاستقرار التي شهدته البلاد . وحقق الاجتهاد المصري القديم انجازات مفيدة ورائدة في المجال الجغرافي وفي مجال الاكتشافات وركوب البحر وساهم ذلك في تعزيز مسيرة الفكر الجغرافي القديم [٤].

**الفكر الجغرافي في بلاد بابل**

في بابل سعى الاجتهاد الجغرافي الى استشعار قيمة الرحلة الجغرافية في توسيع دائرة المعرفة الجغرافية ، وهو يلتمس كشف النقاب عن المجهول من الارض واحوال الناس وعاداتهم وتقالديهم وطرق معيشتهم واحوالهم الاجتماعية ، وقد اسفر هذا الاجتهاد في اسهام جيد ومناسب في صناعة الجغرافية الوصفية ، وهذا الاجتهاد قد توصل الى فرضيات مهمة من خلال التدبر والتفكير العلمي ، ابرزها ان الماء اصل كل شى وان قوة الخالق اساس التكوين وصناعة الحياة ، واختلط هذا الاجتهاد بالاساطير والخيال .[٥]

**الفكر الجغرافي في بلاد الصين**

ارتبط الفكر الجغرافي في بلاد الصين بالتفكير الاجتماعي الذي كان أقدم تفكير منظم عرفه المجتمع الإنساني قبل عصر سقراط .غير أن أهم ما يميز التفكير الاجتماعي في الشرق القديم كونه ذا طابع يفتقر الى التنظيم وغير نابع عن دراسة مقصودة لذاتها وإنما كان مجرد انعكاس لظروف اجتماعية معينة . كذلك كان تفكير يعكس التجربة الشخصية لفرد ما أي كان تفكير فردي أكثر منه اجتماعي كذلك اتسم التفكير الاجتماعي في الشرق القديم بميله إلى النزعة المحافظة حيث غابت عنه معاني التغيير أو الثورة أو التطور[٦]

**الفكر الاجتماعي لبلاد فارس**

اما الفكر الاجتماعي لبلاد فارس الذي يعد جزء من الفكر الجغرافي القديم فقد تميز بظهور حركات الاصلاح على يد (زرادشت)المصلح الديني والاجتماعي الذي كان يدعو الى توحيد الاله واعتماد اله واحد واعتنق (دارا الأول) هذا الدين وجعله دين الدولة الرسمي ، غير ان دعوة زرادشت انقرضت وتحول الفرس الى عبادة النار وعادو الى الفساد والالحاد ، وتكون المجتمع من طبقات جامدة لايمكن الانتقال من طبقة الى اخرى ثم جاءت دعوات لتحرير الانسان مثل دعوة ماني ومزدك والملك قباذ وكان الاباء يتحكمون في الاسرة وللمراة دور هام في بعض المراحل وكان ابناء الموسرين يلقون تعليما كاملا على يد الكهنة وكانوا يدرسون كتب الطب والدين والقانون [٧] .

لقد اتاح التفوق الامبراطوري لبلاد فارس الحد الاقصى من استثمار الاحتكاك الحضاري مع مختلف الشعوب وقد شغف الفرس في استطلاع المجهول لذا برعوا في صناعة الازياج واعتبروه ضربا من ضروب الحسابات الفلكية التي تلتمس العلا قة بين الانسان وحظة ومصيره من جانب وحركة الاجرام السماوية من جانب اخر وزخرت الاساطير الفارسية بقصص الرحالة باتجاهات العالم المختلفة مما يؤكد الشهية الجغرافية المنفتحة في حضارة فارس ومساهمتها الفعالة في نضوج الفكر الاجتماعي .

**الفكر الاجتماعي في بلاد الهند**

اما الفكر الجغرافي في بلاد الهند فكان يقسم الى اتجاهين بحسب الديانات الرئيسة المنتشرة وهي الهندوسية والبوذية ، اذ تعكس الديانة الأولى حياة المجتمع الآري الأول وما تحتويه من سذاجة وأساطير ووحشية وهذه الديانة خاصة بالطبقات الأربع الاولى للديانة الهندوسية . اما الطبقة الخامسة فهي طبقة المنبوذين الذين اعتبروا من الأنجاس الذين لا يجوز لهم الاقتراب من الهه الأسياد لذا بقي المنبوذين في مستوى متاخر من التفكير والثقافة والوضع الاقتصادي والاجتماعي[٨] .

وقد تأثر التفكير الجغرافي عند فلاسفة اليونان بما قدمته المدرسة اليونانية المتاخرة حيث كان الاثر المباشر للفكر اليوناني على التفكير الروماني مرتبطا بالمدرسة الرواقية والمدرسة

الابيقورية ، الا ان كل من فكر هاتين المدرستين قد تاثر بالطابع الروماني وظروف حياة روما ونوعيتها .

**الفكر الجغرافي لدى العرب قبل الاسلام**

نستطيع القول ان الفكر الجغرافي لدى العرب وان بدأ متاخرا ، لاسباب تتعلق بالاهتمامات الرئيسة للعرب التي اقتصرت على حقول معرقية معينة ابرزها الشعر واللغة وانساب العرب والتاريخ . الا ان البيئة الجغرافية لبلاد العرب كانت تحتم عليهم تطوير معارفهم الجغرافية لان بلاد العرب احوج ماتكون لتلك المعرفة فالبيئة الجافة تتطلب مزيدا من البحث والتقصي عن موارد المياه والصحراء المترامية تتطلب معرفة بالمسالك والممرات،كما ان قلة الموارد تتطلب البحث عن مصادر التجارة ، لذك يلاحظ وجود الجغرافيون النابهون بين العرب في تلك المراحل الزمنيو وهؤلاء يتمثلون بالتجار والادلاء والمرشدين في الطرق والرواة والرحالة الذين كانوا يروون القصص عن البلاد بما فيها حياتهم الاجتماعية ووصف اماكنهم ولباسهم وغذائهم ونباتاتهم وو.. الخ.

ومن ناحية اخرى ان المناخ الصحو والتحاف السماء جعل البدوي دائم التفكر بترامي أراضي المعمورة وظهرت تلك الاحاسيس جلية في اشعار العرب وخطبهم . وتأسيسا على ما تقدم ذكره يتضح ان هناك معرفة جغرافية وفلكية لذى العرب قبل الاستلام ، لكن مجي الإسلام عزز تلك المعرفة بشكل ظهر معه بوادر لمعرفة جغرافية متطورة لاسباب وعوامل تتعلق بالشريعة الإسلامية او النتائج المترتبة على تطبيقاتها وكما يتضح لاحقا .

**الفكر الجغرافي لدى العرب المسلمين**

ان كلمة جغرافيا في اللغة العربية حديثة بعض الشى ، حيث ان علماء العرب والمسلمين العرب والمسلمين كانوا يستعملون مصطلح وصف الأرض او خريطة العالم او المسالك والممالك بدلا من كلمة الجغرافية .

لقد تأثر المفكرون العرب بظهور الإسلام وتعاليمه ،لان الأخير قدم منظومة حياتية متكاملة للمجتمع الإنساني ومجموعة من المبادئ والقيم والتعاليم السامية التي لو تهيأت لها فرص التطبيق العملي فإنها حتما تؤدي الى إصلاح المجتمع وتنظيم واقعه الاجتماعي

ومعالجة حالات الانحراف الاجتماعي بشتى أنواعه ، ومن ثم سعادة الفرد وتصحيح مسيرته العقائدية . ولاريب ان الدافع الرئيس لقوة الحضارة الإسلامية وتجدد ثقافتها هو ما غرسه الإسلام من طاقات إبداعية خلاقة جعلت المسلمين يؤثرون ايجابا في البيئات التي حملوا لها رسالة الإسلام .

لقد ظهرت البدايات الاولى للجغرافية الوصفية في الشرق العربي ابان القرن الثاني للهجرة (٨م) على ايدي المتخصصين في علوم اللغة والأدب ، ولكن نافسهم في هذا المجال بعض المؤرخين مثل هشام الكلبي (٢٠٤هـ -٨١١م) وابن قتينة (٢٧٦ هـ -٨٨٩م) ، كذلك اهتم المؤرخون الجغرافيون في المغرب العربي بكتابة الجغرافية الوصفية وكان في مقدمتهم الرازي الذي وضع قواعد علمي التاريخ والجغرافية معا . وبمرور الزمن وجد أدباء وكتابا وعلماء أسهموا في إثراء المعرفة الجغرافية الإسلامية دون ان يكونوا هم أنفسهم جغرافيين وكان ذلك يتفق تماما مع روح العصر الذي لم يعترف بالتخصص الدقيق الذي نعرفه الآن في مجال العلوم ، فالجاحظ على سبيل المثال وهو يعد من أعظم المفكرين والأدباء في زمانه ضمن كتابه الكثير من المعارف الجغرافية بل انه اصدر كتابا في الجغرافية الإقليمية اسماه (كتاب البلدان) وكتب رسالة قيمة في الجغرافية التجارية اطلق عليها ( التبصر في التجارة ) وينطبق ذلك على اخوان الصفا في بغداد ، ففي رسالتهم معلومات قيمة عن الظواهر الجغرافية المختلفة . ويمكن تفسير سبب تزايد اهتمام المثقفين المسلمين بالكتابة في الجغرافية كون هذا العلم كان يعد من بين فنون الادب بصورة عامة كما ان المعارف الجغرافية كانت لاتقل أهمية في تكوين المثقف المسلم عما كان يلم به من علوم وآداب وثقافة . وكان أفضل ما يرغب في الإحاطة به الى جانب الجغرافية والفلك شى من الأدب وانساب العرب والسيرة المحمدية وأخبار الفتوح وتواريخ الخلفاء والدول الإسلامية لذلك ليس بالغريب ان نسمع عن الأديب والمؤرخ الجغرافي والعالم الجغرافي ورجل الدين والجغرافي . ومن ناحية اخرى نجد ان أولئك الذين غلبت عليهم النزعة الجغرافية لم يترددوا في الكتابة بمجالات الأدب والتاريخ والفلك فالإدريسي ناقل الثقافة الإسلامية الى بلاد أوربا المسيحية وابن الفقيه قدم في كتابه البلدان عرضا للاتجاهات الأدبية وتعرض أبو الفدا في كتابه تقويم البلدان للمسائل الفلكية [٩].

**الجغرافيين العرب**

ان من ابرز الجغرافيين العرب هما ابو نصر الفارابي (٨٧٣ – ٩٥٠ ) وعبد الرحمن ابن خلدون (١٣٣٢- ١٤٠٦ ) وقد ذهبا الاثنان في اتجاهات متباينة ومتضادة في تفسيرهما للسلوك البشري ففي الوقت الذي ركز فيه الفارابي على دور العقل البشري على انه المقياس الصادق للسلوك ذهب ابن خلدون الى الاتجاه الموضوعي والمناهج الوضعية في فهم السلوك الإنساني وتفسيره . وقد تاثر الفارابي بارسطو وافلاطون ويعد مؤلفه (اهل المدينة الفاضلة ) المرجع الأساسي لأفكاره الاجتماعية ، وقد اكد على حاجة الإنسان للتعاون مع محيطه لإشباع حاجاته وتحقيق سعادته لان الإنسان اجتماعي بطبعه . وقسم الفارابي المجتمع الى طبقات مرتبة تنازليا في القمة هناك الرؤساء وفي القاعدة العمال والخدم ولكل طبقة مركزها الاجتماعي وفي ضوء البناء الطبقي قسم الفارابي العمل بحسب الطبقات الاجتماعية وأكد على ضرورة التعاون بين فئات المجتمع وانها في هذا الاتجاه تشبه الكائن البشري الذي تتعاون أعضاؤه لتحقيق غاياته . وقد ظهر التأثر الإسلامي واضحا في فكر الفارابي ، اذ رفض فكرة القوميات والدول المتطاحنة حيث قسمها الى المجتمعات الكاملة والمجتمعات الناقصة فالأولى تمتاز بالتعاون والثانية ينعدم بها التعاون فلا يصل الإنسان فيها عندئذ الى السعادة المنشودة . والمجتمع الكامل بحسب آراء الفارابي يقسم الى المجتمع الأكبر الذي اطلق عليه المجتمع العالمي ثم المجتمع الأوسط الذي أطلق عليه مجتمع الأمة ثم المجتمع الأصغر الذي يدعى بمجتمع المدينة[١٠].

في القرن الرابع عشر نضجت الافكار الجغرافية على يد ابن خلدون الذي رفض ان يكون العقل المقياس الوحيد لفهم السلوك الانساني ووضع مبادئه الأساسية التي فسرفي ضوئها الظواهر الاجتماعية والأحداث التاريخية أي انه ارجع حوادث التاريخ وفسرها وفقا لما وضعه من مبادئ وأسس وقد عرف ابن خلدون الظاهرة الاجتماعية على انها القواعد والاتجاهات العامة التي يتخذها ويتبناها الافراد او المجتمعات لتنظيم شؤونهم وتنظيم العلاقات التي تربطهم مع بعضهم او مع غيرهم من مجتمعات وقبائل ، ومن الناحية الجغرافية فقد ركز ابن خلدون على اثر العامل الجغرافي على التجمع الإنساني ، وفضلا

عما تقدم فقد اهتم ابن خلدون بالسياسة ونوع السلطات والقضاء والتعليم والظاهرة الاقتصادية والدينية واللغوية والعلوم والحرف ، وهو بذلك يبين اثر البيئة الجغرافية على تلك الظواهر . وأكد على ان الظواهر الاجتماعية ما هي إلا انعكاس للعوامل الجغرافية المتعلقة بالمناخ والسطح والتضاريس والجنس البشري وهذه العوامل تساهم في بلورة طريقة الحياة والظواهر الاجتماعية السائدة وهو في آرائه يؤكد على المنهج التجريبي والمنهج التاريخي والمقارن كما اعتمد على الملاحظة المجردة ومعايشة الأحداث وكان يرفض الآراء النظرية المجردة . ومن آرائه الأخرى ان الدولة تقوم تقوم على القبلية والعصبية وان الدعوة الدينية تزيد قوة الدولة وان المغلوب دائما ما يقلد الغالب وان مهنة الزراعة للمستضعفين وان انهيار الأمصار يؤدي الى ضياع الصناعات وانتقاصها والدولة اقدم من المدن والأمصار، وان النظم الاجتماعية تختلف من مجتمع الى آخر ومن وقت الى اخر وان الدولة تمر بأربع مراحل تتشابه مع حياة الأفراد . فضلا عما تقدم قام ابن خلدون بتصنيف العالم المعمور الى أقاليم تمتاز بخصائص سكانية معينة واوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية محددة [١١].

ويعد ابن خلدون من المهتمين في مجال علم الاجتماع البيئي لتطرقه الى اغلب فروع العلم المعروفة الآن ، وكان دائما يؤكد في تفسيراته للظواهر الاجتماعية على البيئة الجغرافية وقد اخذ عنه جملة من الباحثين الأجانب .

ان تطور الفكر الاجتماعي الذي يعد جزء من الفكر الجغرافي لدى العرب لم يكن وليد الصدفة بل تولد لأسباب وعوامل دينية وثقافية واقتصادية فضلا عن العوامل السياسية والادارية ، اذ ساهمت الشعائر الدينية كالحج والعمرة في التعارف والتواصل بين المجتمعات والشعوب من مختلف الأصقاع ومعرفة عاداتها وتقاليدها والتعرف على أحوال بلدانها . وكانت المساجد تؤدي دورا اجتماعيا واسع النطاق فضلا عن كونها منبرا اعلاميا وكان الغريب يأوي الى جامع المدينة في حال عدم معرفته بأهلها . ومن جهة اخرى فان المنظومة الاسلامية بما تحمله من قيم ومبادئ ساهمت في صيرورة علاقات اجتماعية خاصة تستند على التواصل وألالفة والاحترام والمساعدة وحسن الجوار . اذ ان الاسلام عقيدة ومنهج

سلوكي وعبادات يمثل في كل زمان ومكان قوة دافعة للحركة الحضارية يهدف الى سعادة الانسان والانسانية ويهدف الى دفع المجتمع نحو شواطىء الرفاهية والازدهار. وكان الحج بمثابة مدخل طبيعي إلى الجغرافيا ومدرسة جغرافية متكاملة ، تجمع تلاميذها من جميع الأنحاء ، حتى ان بعض الرحالة بدأوا عملهم كحجاج كما هو الحال بالنسبة لابن بطوطة الذي بدأ حاجاً وانتهى رحالة جغرافياً.

ان للرحلة في علم الجغرافية مكانة خاصة وله فيها مآرب واهداف كثيرة ، ومما لاشك فيه ان الرحلة قد فجرت في الانسان الحس الجغرافي الفطري ، وهي تصطحب معها الاجتهاد الجغرافي لكي يبصرها ويرشد خطاها على الطريق الصحيح واعطت الرحلة للمجال الجغرافي في المقابل فرص المعاينة والرؤية والتعايش . وقد وظفت الرحلة علم الجغرافية توظيفا حصيفا ، وهذا التوظيف قد تطرز لكي يتفق مع ارادة البحث الجغرافي ، لكن المؤكد ان هذه الاستجابة قد اسعفت علم الجغرافية واشبعت اهتماماته وتطلعاته . ومن هنا يتضح ان الرحلة وظفت لخدمة الهدف الجعرافي [١٢].

ولم يكن التخصص الجغرافي واضحا عند العرب ، لذلك جاءت الكتب التي تناولت الكتابات المكانية الوصفية على يد المؤرخين الذين دفعوا عجلة الجغرافية الوصفية من خلال وصف المدن والانهار والعلاقات الاجتماعية والسلوك البشري وكل ما يتعلق بالاوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للبلدان التي مروا بها . لذا ظهر التداخل واضحا في الجانب التاريخي والجغرافي لدى العرب . ويظهر البعد الاجتماعي واضحا في كتابات الجغرافيين العرب مما يعد المحاولات الاولى لنشوء الجغرافية الاجتماعية بمعناها العام والشمولي . ولم تكن هذه الازدواجية جديدة فهي موجودة عند هيرودوت ( ٣٨٤ –٤٠٦ ق.م ) الذي لقب بأبي التاريخ وتنطبق الحال بالنسبة لهيكاتيوس (ابو الجغرافيا) احد كتاب القرن السادس ق.م [١٣] كما سادت الازدواجية في الكتابات الجغرافية العربية القديمة التي جمعت بين التاريخ والجغرافية ، وقلما نجد مؤلفاً او كاتباً جغرافياً لايكتب التاريخ وبالعكس ، امثال اليعقوبي ٢٨٤هـ وابن خرداذبة ٣٠٠هـ والهمذاني ٣٣٤ هـ والمسعودي ٣٤٦هـ ، والرازي ٣٦٢هـ [١٤] .

ويصف ابن حوقل اهم رحالي القرن الرابع الهجري في كتابه صورة الارض بان علم الجغرافية " علم ينفرد به الملوك والساسة واهل المروات والسادة من جميع الطبقات " وفي ذلك دلالة على اهمية علم الجغرافية التي تعد وجها مهما من الجوانب الاجتماعية

ويعد ابن خلدون ابرز الكتاب العرب الذين كتبوا في الجغرافية الاجتماعية وأكد على الفروق بين الحضر والبدو ، وان البادية هي أصل العمران وان للمناخ اثر في طبائع الشعوب وألوان بشرتهم وان الربع الشمالي من الكرة الأرضية أكثر عمرانا وسكانا من الربع الجنوبي وقد أشار كذلك إلى أثر المناخ في طبائع الشعوب وألوان بشرتهم ، وأكد المقدسي والاصطخري على أزياء الأقوام وعاداتهم وأخلاقهم وصفاتهم وأشكالهم . ويبدو ان تاكيد ابن خلدون على الظاهرة الاجتماعية ياتي في سياق اعتبارها الموضوع الاساسي لعلم الاجتماع لذلك تعرض الى العوامل المتصلة بالظاهرة الاجتماعية والنظم التي يسير عليها الترابط والتجمع الانساني كما اكد اثر البيئة الجغرافية بكل عناصرها على الظواهر الاجتماعية [١٥] ، الامر الذي يشير الى ان الفكر الاجتماعي عند العرب قد قطع شوطا بعيدا في اتجاه التكامل المعرفي لعلم الاجتماع.

لقد أصبح الاهتمام بالرقعة المفتوحة جزءا هاما من العمل الإداري للدولة الإسلامية ، وصار وصف الأقاليم والعناية بها جزءا من إخبار الفتوح والمغازي والتنظيم ، ومن ثم جاء دور الاهتمام بالمنطقة من حيث ثروتها ومقدراتها على دفع الضرائب ٠ لذا نجد أول استقلال لما يصح ان يسمى الجغرافية الاجتماعية والإدارية والسياسية عن الفتوح والمغازي وإخبارها جاء ضمن كتاب (المسالك والممالك ) الذي وضعه ابن خرداذبه في أواسط القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد ) وفي كتاب (الخراج وصنعة الكتابة ) لقدامة بن جعفر ٠ فالأول يمكن اعتباره تقريرا عن جباية المملكة العباسية اما الثاني فكان وصفا للطرق والمسافات وتقديرا لجباية الدولة ٠

وباستقرار الدولة وكثرة تنقل الحجاج والتجار وأهل العلم والرحالين واهتمام الكثرة من هؤلاء بتدوين ما يرون ويشهدون ويسمعون ،أخذت العناية بالجغرافية تتبلور حول دراسة الأقاليم والمناطق دراسة وافية ، مع كثير من التحرر من القيود السابقة ، وصارت المعرفة الجغرافية نفسها هي الأصل ٠

يمكن القول بأن هذه المرحلة أي القرن الرابع (العاشر للميلاد) تمثل دور النضج في الجغرافية العربية ، وقد استمر هذا فيما بعد لمدة لا يستهان بها ، ونلاحظ أربعة اتجاهات أو تطورات في التأليف الجغرافي العربي ، الأول العناية الشديدة بأقطار العالم الإسلامي على ما يبدو من كتابات البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي ، والثاني نوع من التخصص الجغرافي ،فالهمذاني وضع (وصفة جزيرة العرب ) والبيروني كتب عن الهند وابن فضلان وصف بلغار الفولغا ، والاتجاه الثالث هو وضع المعاجم الجغرافية ،وهذا شي بدأ في القرن الخامس (الحادي عشر )،فالبكري وصف معجمه بقولة (هذا معجم ما استعجم ذكرت فيه جملة ما ورد من الحديث والإخبار والتواريخ والإشعار عن المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات منسوبة محدده ومبوبة على حروف المعجم مقيدة) وكتابات ياقوت الحموي (معجم البلدان ) خزانة أدب وعلم وإخبار وتاريخ وجغرافية ،ونلاحظ الاتجاه الرابع في هذه الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن (الرابع عشر) من نوع (نهاية الإرب ) للنويري و( صبح الأعشى ) للقلقشندى و(مسالك الإبصار ) لابن فضل الله العمري وغيرها ، هذه الكتب اعتنت بما يصح ان يسمى الجغرافية الاجتماعية السياسية الاقتصادية إي بشؤون العمران عامة ، والذي يقرأ بعض فصول هذه الموسوعات يرى إلى إي حد اهتم المؤلفون بجمع معلومات ومتابعة التطور في الأقطار المختلفة على ترتيب زمني .

والكتابة الجغرافية في هذه المرحلة الزمنية الطويلة تبدو لها ميزات واضحة فمن ذلك اعتمادها على المشاهدة الشخصية والحس ، ومن ذلك عنايتها بالمسالك والطرق والمسافات ومن ذلك ندرة الإحصاءات عند الجغرافيين إن لم نقل انعدامها [١٦]

تأسيسا على ما تقدم يتضح ان بدايات ظهور الجغرافية الاجتماعية تعود الى بدايات ظهور علم الجغرافية ، اذ يرجع تطور المنظور الاجتماعي في الجغرافيا الى تطور الجغرافيا ذاتها ، وهو ما يتضح من خلال كتابات الجغرافيين العرب او المدارس الجغرافية الغربية والشرقية التي حاولت الربط بين الانسان وتصرفاته وسلوكياته وبيئته الطبيعية والبشرية .

ومن الامور التي اسهمت بتطور حركة الرحلة عدم وجود تعارض بين علم الرحلات والتعاليم الاسلامية بل على العكس تماما فهناك حث على الحركة والتنقل " قُلْ سِيرُوا۟ فِي

الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ - **الأنعام - الآية - ١١.** وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ - **سبأ - الآية - ١٨** فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ - **الملك - الآية - ١٥** وهناك جملة من الاحاديث النبوية الداعية الى طلب العلم وبهذا فقد أصبح الارتحال في طلب العلم منذ القرن الأول للهجرة أشبه بالضرورة اللازمة لتكملة "دور الدراسة" ففي طلب العلم رحل الناس من الأندلس الى بخارى ومن بغداد الى قرطبة . وهكذا فقد حطيت المدرسة الجغرافية العربية باهتمام بالغ ، بسبب غنى مادتها وتنوعها ودقتها فهي تارة علمية وتارة شعبية ، وهي طوراً واقعية وأسطورية. تكمن فيها المتعة والاثارة وحب الفضول ، كما تكمن فيها الفائدة ولذا فهي تقدم لنا مادة علمية ذات ابعاد متعددة .

اما العامل الثقافي فهو الاخر كان له اثر كبير في نضج الفكر الجغرافي العربي بعد ان تحولت بعض المدن العربية الى مراكز اشعاع ثقافي ومعرفي يؤومها طلبة العلم من مختلف الاتجاهات وأصبحت سوقا رائجة لتبادل الكتب والمراجع العلمية وأنشأت فيها المدارس الفكرية ، واقيمت بها حلقات نقاشية بين العلماء والفلاسفة على اختلاف اتجاهاتهم ومن تلك المدن مكة المكرمة وبغداد والكوفة والقاهرة والبصرة ودمشق .

لقد استفاد الفكر الاجتماعي من العامل الاقتصادي من خلال مهنة التجارة التي اشتهر بها العرب الذين جابو البلدان بحثا عن البضائع والسلع التي تفتقر لها بيئتهم الصحراوية التي كانت مصدر الهام للعربي من خلال اتساعها وصفاء اجوائها . وانتشرت ظاهرة بيع الكتب لاسيما التي تصف الطرق والبلدان والمسالك والاسواق والصفات العامة للبلدان واختلافاتها من الناحية المناخية والزراعية وما تشتهر به من سلع وحاصلات .

وقد اتسعت رقعة أراضي الدولة الإسلامية خلال القرنيين الثامن والتاسع واتصلت مع الحضارات الأخرى وأثرت وتأثرت بها من خلال الاحتكاك الحضاري الامر الذي زاد من اتجاهات الفكر الجغرافي لاسيما وان أمور المالية والخراج تستدعي تلك التطورات حيث جمعت معلومات دقيقة عن الأراضي التي وصلها المسلمين ورسمت لها الخرائط وعينت حدودها وانواع المحاصيل الزراعية فيها وما تشتهر به من الصناعات.

## التطور التاريخي للجغرافية

وقد خضعت الجغرافيا كغيرها من العلوم لكثير من التغيير والتطوير كما عانت أيضاً من اختلاف العلماء والمفكرين فى عدم التحديد الدقيق لتعريفها ووظيفتها ومفهومها ، بل نجد أن لكل مجموعة من العلماء والمفكرين تعريفاً لعلم الجغرافيا.

لعل تعريف الجغرافيا بأنها علم وصف الأرض هو أقدم تعريف لها ، بل أنه التعريف المستمد من المعنى الحرفي لكلمة " جغرافية " Geography المشتقة من الجذور الإغريقية Geo بمعنى الأرض و Graphy وتعنى وصف ، والمعنى الإجمالي هو وصف الأرض .

وهناك مآخذ كثيرة على هذا التعريف ابرزها ان هذا التعريف يجعل من الجغرافية علما وصفيا مجردا بعيد عن اسس العلوم التطبيقية الحديثة المبنية على اساس التحليل والاحصاء ، وهذا التعريف يحصر الجغرافية في اطر ضيقة جدا وقد اثبت هذا التعريف خطأه في الوقت الحاضر الذي اخترقت به الجغرافية جانب الوصف ودخلت الساحة العلمية بقوة وثبات لتساهم في حلحلة مشاكل المجتمع والبيئة . ويكون لها صوت مسموع في الوقائع والمحافل العلمية .

## العلاقة بين الانسان والبيئة الجغرافية

لقد تميزت الجغرافية بعلاقتها مع البيئة بكل مفرداتها بما فيها البيئة الاجتماعية التي تعبر عن الوسط الذي ينشأ فيه الفرد الذي يحدد شخصيته وسلوكياته واتجاهاته والقيم التي يؤمن بها. وللاهتمام بالبيئة تاريخ موغل في القدم ، فمنذ أن وطأت قدم الإنسان ارض البسيطة بدأت اهتماماته بالبيئة المحيطة به على اختلاف اتجاهاتها وأبعادها ، لان هناك تلازما بين البعد الجغرافي وغريزة الاكتشاف وحب الفضول لدى الإنسان ومنذ بدأ الخليقة والحس الجغرافي ملازم للإنسان ، ففي العصور الحجرية اهتم الإنسان بتدوين رسوماته على جدران الكهوف ، فضلا عن تحديد مناطق الصيد والخطر المحدق به من كل جانب ومكان ، وخطى الحس الجغرافي خطوات واسعة بعد اختراع العجلة واكتشاف الزراعة وتطور البشرية . ومع تقدم المراحل الزمنية وتطور الحضارة الإنسانية ازداد اهتمام الإنسان ببيئته وتوسعت اهتماماته واكتشافاته وأفكاره ومعارفه وأصبحت الرحلات التجارية والعلمية

والدينية من أهم وسائل جمع المعلومات عن البلدان والأماكن الأخرى ، ولاشك ان وصف البلدان من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية كانت المهمة الرئيسة للجغرافيون العرب آنذاك .

وفي كتابات الجغرافيين الإغريق برزت الاهتمامات بأحوال البلاد الاجتماعية التي وصفوها وكتبوا عنها، ومنها ما جاء في كتاب "الجو والماء والأقاليم" الذي وضعه هيبوقراط (٤٢٠ ق. م) حيث أشار إلى الاختلافات الجسمانية والجغرافية بين سكان الأقليم الجبلية الذين يتميزون بالشجاعة وبين سكان السهول الجافة الذين يتصفون بالنحافة وفيهم طبيعة السيادة والإمارة ، اما أرسطو فقد أوضح أن هناك نوعاً من الارتباط بين المناخ وبين طبائع الشعوب.

ويعد هيكاتايوس من بين الاغريق المنتهجين نهج الجغرافية الوصفية ودعي بـ (ابو الجغرافيا) لانه قام باول محاولة من نوعها وهي قيامه بجمع المعلومات المكانية الطبيعية والإنسانية ورتبها وبوبها بنظام علمي وكان كتابه يحمل اسم الفترات الزمنية ومعلوماته تناولت اسيا وبلاد فارس ،واهتم الرومان بعلم المكان الوصفي وكتبو عن المناطق والاقاليم والبلدان واصفين بدقة ظواهرها الطبيعية والانسانية ومنهم (فاجاثا ركيد) في اواخر القرن الثاني قبل الميلاد الذي اهتم بالمتغيرات الانسانية في علم الجغرافية . اما بليني فقد وضع دائرة معارف عن الطبيعة وأثرها التطبيقي على الانسان في ٣٧ مجلد .

ويعد بطليموس الشخصية الاهم في العصر الروماني اذ وضع مجلدين في الجغرافيا اولهما رسالة في الفلك وتعرف باسم الجامع وأخذت اسم المجسطي وثانيهما المرشد الى الجغرافيا وهي المحاولة الاولى لوضع دراسة عن المكان على أساس علمي وقد زود الكتاب بخرائط أهمها خريطة بطليموس للعالم ويمكن اعتبار المجلد مرشدا مهما لرسم الخرائط وتقسيم القارات . وعموما فقد كان للمجلدين الاثر الكبير في بلورة وصقل الدراسات العربية والاوربية [١٧] والإغريق هم أصحاب فكرة تقسيم العالم إلى أقاليم ، فقد قسّم بوزيدونس سطح الأرض إلى عدة مناطق ، وهي المحاولة للاولى للدراسة الإقليمية، اما بطليموس فقد قسم العالم في عهده إلى سبعة أقاليم على أساس مناخيّ (درجة الحرارة) ومن هنا يكون" بطليموس رائد الفكر الإقليمي في الدراسة الجغرافية .

وفي القرن الثامن عشر الميلادي ظهرت كتابات مونتسكيو "روح القوانين" الذي اعتبر فيه أن الإنسان كائن فرد تقابله قوتان كبيرتان هما الأرض أو التربة، والمناخ ، ويرى أن التربة الفقيرة تؤدي إلى قيام حكومة شعبية والتربة الخصبة تؤدي إلى قيام حكومة ارستقراطية.

الا انه على الرغم من تلك الكتابات الا ان الجغرافية الاجتماعية لم تتبلور كفرع مستقل يشار له بين فروع الجغرافية الا بعد تطور المدن وتعقد الحياة الاجتماعية على اختلاف نظمها وصعدها ، لذلك فان اول من اطلق تعبير الجغرافيا الاجتماعية في العصر الحديث هو فريدريك راتزل ( Friedrich Ratzel) وهو جغرافي الماني من انصار المدرسة الحتمية حاول ان يربط العلوم الطبيعية والانسان من خلال علم المجتمعات البشرية ، وكانت له آراء متعددة في مجال السياسية ، اذ اعتبر

مراحل تطور الدولة أشبه بالكائن البشري [١٨] ، وقد كان للمواضيع الجذابة التي تناولتها الجغرافية الاجتماعية اثر بارز في تطور هذا التخصص ولعل اولى بدايات تلك المواضيع هي تلك المتعلقة باحياء المهاجرين والاحياء المنعزلة التي يطلق عليها الجيتو Ghettos ومنها احياء السود او احياء الصينيين في المدن الامريكية ودراسة خصائصهم الاجتماعية والاقتصادية . وهذه المواضيع كانت تدرس من قبل جغرافيو السكان والسياسة والاقتصاد . وبعد ذلك تبلور فرع الجغرافية الاجتماعية واصبح له تخصص واضح وكيان مستقل واصبح للجغرافيين الاجتماعيين مجموعة ضمن رابطة الجغرافيين الامريكيين واعضاء في الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية .

**المدارس البيئية** :

لقد شغلت العلاقة بين الانسان والبيئة اذهان المفكرين والفلاسفة والباحثين على اختلاف مشاربهم ولمراحل زمنية طويلة ، الامر الذي ولد اراء ونظريات متعددة تاثرت هذه الاراء بالمراحل الزمنية التي عاشها اصحابها ، ويمكن تصنيف هذه الاتجاهات الى المدارس الاتية :

**المدرسة الحتمية ( Deter Minism )**

تعد المدرسة الحتمية من اقدم المدارس التي حاولت ان تحدد العلاقة بين البيئة والانسان فتعمقت بوادر هذه الفلسفة تبلورت هذه الفلسفة في اواخر القرن التاسع عشر على يد

فردريك راتزل ( ١٨١٠ – ١٨٩٢ ) الذي اخذ بمبدأ السببية causuallty في تحديد العلاقة بين الإنسان وبيئته الطبيعية فهم يعتبرون ان للظروف البيئية الطبيعية الأثر الأكبر في حياة الإنسان وفي نظمه الاقتصادية والحضارية وأزدادت وضوحا على يد اتباعه في مطلع القرن العشرين .

وقد خرجت تعاليم راتزل من ألمانيا لتنتشر في أمريكا على يد سميل Semple التي امتهنت للتدريس بجامعة شيكاغو وهي إحدى تلاميذ راتزل وقد اصدرت كتابا تحدثت به عن اثر البيئة الطبيعية على تاريخ الولايات المتحدة خلال الفترة الواقعة بين ١٩٠٣ – ١٩٣٢ ومن انصار هذه المدرسة ايضا هنتكتون Huntington الذي ألف مكتبة كاملة في دراسة حتمية تأثير البيئة على الإنسان والتاريخ والحضارة وفي انكلترا انضم الى مدرسة راتزل أساتذة كبار من أمثال Fleure وروكسبي Roxby وفيرغريف ، و هناك امتداد لاراء راتزل في فرنسا تمثلت في اراء لوبلاي Leplay ودومولان Demolins وتورفيل Tourville

وبدايات هذه النظرية ترتبط بظهور علم الجغرافية لكن بشكل غير واضح المعالم . وتقوم الفكرة البيئية الحتمية على ان الانسان خاضع للمؤثرات البيئية وبأنه سلبي التأثير في بيئته التي يعيش فيها وانها هي التي تحدد نمط حياته وفعالياته المختلفة وانه نتاج بيئته الطبيعية تتحكم فيه قوانينها. "وتشير ( Ellen Semple ) ، الى ان الحتمية تؤكد ان البيئة هي كل شيء في حياة الانسان ، وان التطور البشري والجهد الانساني لا يخرج عن كونه نوعا من التفاعل السلبي مع البيئة وخضوعا لها" [١٩].

ويظهر الاثر الحتمي في العمران الريفي بشكل واضح من خلال التجمعات القروية حول مصادر المياه في المناطق الجافة وشبه الجافة كما هو الحال في مناطق الواحات الصحراوية في حين يميل السكان للانتشار في المناطق الرطبة او الممطرة . ويميل السكان للتجمع في المناطق السهلية وانشاء انماط سكنية حضرية للاستفادة من الوفرات الاقتصادية التي يوفرها التجمع البشري ومن اهمها الامن والدفاع المشترك والعلاقات الاقتصادية ، في حين يميل سكنة المناطق الوعرة الى التباعد والتشتت وهو أمر يعود الى قلة المساحات

الصالحة للزراعة . بعبارة اخرى ان النمط السكني ونوعية العمران ماهي الا انعكاس للعوامل الطبيعية فنوع القرى والمستوطنات واحجامها واشكالها تتاثر الى حد كبير بالمؤثرات الطبيعية ، وقد ساهم العامل البشري بعد تقدم البشرية في ايجاد منافذ ومبررات تجعل من العامل الطبيعي ليس هو المسيطر على الانماط العمرانية والسكنية .

**المـــدرسة الامكانيـــة POSSIBILISM**

جاءت نظرية المدرسة الامكانية كرد فعل للنظرية الحتمية ، وترى ان للانسان امكانيات يستطيع من خلالها تطويع البيئة الطبيعيةNatural environment لخدمته وان الانسان هو الذي يسيطر على البيئة ويخضعها لمتطلباته ورغباته ، ويتم تعديلها وفق مشيئته وان للبيئة امكانيات متنوعة يتوقف استغلالها على حرية الاختيار الانساني وما يتناسب وطموحات الانسان وقدراته العلمية ، فالبيئة لا تحتوي على ضروريات او حتميات ، وانما على امكانيات واحتمالات يستطيع الانسان ترويضها لخدمته .

لقد ظهرت النظرية الامكانية على يد فيدال دى لابلاش De La Blasch الذي كان يرى أن البيئة ليست مظهراً أرضياً طبيعياً بل مظهر أرضى حضاري Cultural ، وهذا المظهر الجغرافي هو في الواقع موضوع علم الجغرافيا ، وناصر لابلاش بعد ذلك كل من برون Brunhes وفالو Vallaux وغيرهم وهذه المدرسة الفرنسية التي ترفض خضوع الانسان للبيئة

ان الامثلة على الفلسفة الامكانية تتضح مع التقدم العلمي أي كلما ازدادت البشرية تقدما كلما برزت معالم هذه النظرية والامثلة على ذلك كثيرة اذ استطاع الانسان ان يتغلب على بعض عناصر المناخ من خلال اجهزة التكييف كما انه استطاع ان يستصلح المناطق ذات التربة الفقيرة فضلا عن قيامه بانتاج المحاصيل الصيفية شتاءا وبالعكس من خلال البيوت الزجاجية او الزراعة المحمية (Under- cover cultivation ) والقائمة تطول في هذا المجال .

**البيوت الزجاجية كثال مهم للمدرسة الامكانية**

**المدرسة التوافقية Probabilism**

لم تعترف هذه المدرسة بآراء المدارس السابقة فقالت لاحتم مطلق ولا امكانية مطلقة فجاءت اراء هذه المدرسة على يد ( Griffith Toylor ) ، الذي حاول التوفيق بين الحتمية والامكانية ، ويرى بأن الانسان لا يستطيع تغيير البيئة تغييراً جوهرياً كاملا ، بل ان فعله لا يتعدى كونه تعديلا او تحسينا بما يخدم مصلحته وان البيئة اشبه بشرطي المرور ، فاستغلال البيئة لايكون الا من خلال مساعدة البيئة وليس من الضرورة ان يكتب النجاح لذلك الجهد، فالانسان يختار ويفكر ويجد والبيئة تعطي وتستجيب[٢٠] .

لاشك ان التطور العلمي والتكنولوجي ساهم بشكل كبير في ابراز النظرية الامكانية ووضوح معالمها على الرغم من ان اصحاب هذة النظرية ذهبوا بعيدا فالبيئة تبقى محددة رئيسة للبشر لكن هذا لايعني الاستسلام لها فقد حاول الانسان ومنذ القدم ان يروض ويطوع المؤثرات البيئية لخدمته واصبح الان اكثر قدرة على ذلك من السابق بفعل التقدم البشري في جميع المجالات . وكلما كانت الدولة اكثر تقدما كلما اتسعت مجالات الامكانية في حين تبرز المدرسة الحتمية بوضوح في الدول المتخلفة .

ان التعارض بين المدرستين هو تعارض مضلل اذ ان كلتا المدرستين تكمل احداها الاخر وان التعارض وقتي وعابر فقد ذكر هتنر إن الأصولية والإقليمية وجهان لشيء واحد، كما بدأ يثبت الآن أن الحتمية واللاحتمية أمور نسبية، وقد تتعاصر أي توجد مع بعضها في آن واحد ، وعلى الرغم مما تقدم فان للبيئة اليد الطولى في بعض التاثيرات التي يقف الانسان مستسلما ازاءها او لنقل ان تاثيراته محدودة لاسيما فيما يتعلق بالكوارث الطبيعية كالزلازل مثلا او قلة الموارد الاقتصادية او انعدام الساحل البحري وغير ذلك كثير .فضلا عن التاثيرات الاجتماعية للبيئة وتاثيراتها في سلوك الانسان واتجاهاته وميوله وعلاقاته الاجتماعية .

لقد حاولت المدرسة التوافقية أو الاحتمالية أن توفق بين أراء المدرستين السابقتين فهي لا تؤمن بالإمكانية المطلقة او الحتم المطلق بل ترى بأن الاحتمالات قائمة في بعض البيئات لكي يتعاظم الجانب الطبيعي في مواجهة سلبيات الإنسان و قدراته المحدودة ، وفي بيئات أخرى يتفاقم دور الإنسان في مواجهة التحديات على اختلاف أنواعها مكانية ، وهذا يتوقف على المستوى العلمي والثقافي والحضاري للانسان ، وعلى نوعية البيئة وشدتها وإمكانياتها ومواردها وسهولة التعامل معها فهناك بيئات يصعب على الانسان تطويعها او ان تطويعها يتطلب تقنية وامكانية عالية جدا في حين تمتاز بيئات اخرى بسهولة التعامل معها وسهولة تسييرها لخدمة الاهداف الانسانية ، وقد صاغ الباحث الانجليزي ارنولد توينبي ) (Arnold toynpeأربعة استجابا للعلاقة بين الإنسان و البيئة" هي [٢١] :

- الاستجابة السلبية : وهي الاستجابة الاولى للانسان في بيئتة القديمة حيث حرفتي الجمع والالتقاط والصيد ، فالإنسان انذاك كان عبدا للبيئة الطبيعية تتقاذفته حيثما تشاء ولم يكن يمتلك مايستطيع من خلاله ايقاف تاثيرات البيئة او تغيير اتجاهاتها .
- الاستجابة التأقلمية : وهي الاستجابة التي حصلت نتيجة التقدم البسيط للانسان وحصوله على بعض المعرفة فبدا يتأقلم جزئيا مع ظروف بيئته الطبيعية،فاعتمد على وسائل متطورة نسبيا في الصيد أوالرعي في مناطق مختلفة فضلا عن تربية الحيوانات والاستفادة منها .

- الاستجابة الايجابية :وفي هذه المرحلة تبرز قدرة الإنسان على ترويض بيئته بحسب مصالحه واحتياجاته ، حيث تطورت وسائل الانسان وامكانياته في الصيد والزراعة والتجارة والصناعة . فضلا عن تطور البيئة الاجتماعية للانسان من خلال التجمعات البشرية الناجمة عن العمل في المهن والنشاطات الاقتصادية المختلفة.
- الاستجابة إبداعية : وهنا لا يكتفي الإنسان بمجرد التأقلم مع بيئته او تطويعها لخدمته ، بل اخذ يبتكر ويبدع ليتغلب على جميع عناصرها .

**ماذا تستطيع ان تقدم لنا الجغرافية**

إن دراسة الظواهر المكانية والبحث في توزيعاتها المختلفة لا يمكن أن تتأتى دون اللجوء إلى الملاحظة الميدانية الشمولية . وبما أن الجغرافيا علم بيني وصلة وصل بين عدد من العلوم ، يدرس التوزيعات المكانية للظواهر الطبيعية والبشرية، ويقوم بإبراز تباينها المكاني ويحلل كيفية نسقها الجغرافي ، بواسطة منهج علمي يعتمد الوصف والتحليل والتفسير، وبما أن الإنسان في أبعاده المختلفة يعتبر الغاية المركزية والأصيلة في الدراسة الجغرافية، فإن تناول موضوع البيئة بناء على هذه المقاربة ذات النزعة الشمولية، يعتبر مدخلا جوهريا للوقوف عند جملة من المصطلحات المتداخلة والمشكلة للنظام البيئي الجغرافي:

**دور الجغرافيا في حل المشكلات البيئية:**

الجغرافيا اليوم تدرس جميع مكونات المكان وليس هناك من ظاهرة طبيعية او بشرية بمنآى عن معاول الجغرافي الذي تناولها بحثا ودراسة وتقصيا والبحث الجغرافي لايقتصر على التوزيع الجغرافي او التباين او العلاقات المكانية على الرغم من ان المفاهيم السابقة تعد من المفاهيم المهمة التي رافقت علم الجغرافية على امتداد المراحل الزمنية ، فالجغرافية اليوم تذهب إلى أقصى من ذلك من خلال التفسير والتحليل مع إعطاء وجهة نظر لتحسين الوضع القائم بالاستغلال الامثل للموارد الطبيعية والبشرية مع المحافظة على حقوق الاجيال القادمة فإن مساهمة الجغرافيا في حل المشكلات البيئية يمكن أن تتم من خلال الأمور التالية:

أ -ونظرا لأن الجغرافيا من العلوم التركيبية التي تجمع ما بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ، فإنها بهذا تكون الاقدر على تقديم النصائح والارشادات السديدة التي

من خلالها تتم معالجة المشكلات العالمية والاقليمية والمحلية على اختلاف مستوياتها ، ولا يقتصر دور الجغرافية على تقديم التوصيات فهي في احيان كثيرة تدخل كعامل تنفيذي لحل تلك المشكلات بما متلكه من رؤى وشمولية معرفية .

ب -ان علم الجغرافية يستطيع تبويب وتنظيم المشكلات وفق معايير واسس علمية من خلال امتلاكه لمقومات التبويب والتصنيف والتوضيح ، اذ لايخفى ماللجغرافية من علاقة بعلم الخرائط والحاسبات ونظم المعلومات والصور الجوية وتقنيات الاستشعار عن بعد .

ت - ان دراسة المخاطر التي يتعرض لها المكان بعناصره المختلفة يتطلب معرفة شمولية باقليمية المكان ، وتحليل العلاقة بين العناصر المختلفة للمكان والتي تتفاعل فيما بينها لايجاد المشاكل ، وهذه الصفات يجسدها علم الجغرافية .

ج- ان استشفاف المستقبل والبحث فيه من خلال المعطيات الحالية يعد من الاتجاهات المهمة التي سعى لها علم الجغرافية واصبحت من البديهات المهمة في الدراسات الجغرافية الطبيعية والبشرية لذا فان الجغرافية بذلك خير من يبين العواقب الوخيمة لمظاهر التلوث والتعدي على البيئة والمشكلات الاجتماعية ومشاكل النمو السكاني ومشاكل المدن والمستقرات البشرية .

د- علم الجغرافية خير من تقوم بالتربية البيئي لانها العلم الرئيس الذي يهتم بالبيئة بكل مكوناتها ، وتبرز اهمية هذه المسالة في العصر الحاضر بشكل ضروري بسبب ما تعانيه البيئة من مشاكل وتحديات ناجمة عن سوء الإدارة والاستغلال غير العقلاني لموارد البيئة .

**الاستنتاجات**

١- لقد خضعت الجغرافيا كغيرها من العلوم لكثير من التغيير والتطوير كما عانت أيضاً من اختلاف العلماء والمفكرين فى عدم التحديد الدقيق لتعريفها ووظيفتها ومفهومها ، بل نجد أن لكل مجموعة من العلماء والمفكرين تعريفاً لعلم الجغرافيا

٢- تحولت الجغرافية من الجانب الوصفي وهو أولى المراحل التي امتازت بها الجغرافيا ، الذي ساد منذ القرون الأولي قبل الميلاد وطوال فترات القرون الوسطى الى الجانب التحليلي والاستقرائي في الدراسة والبحث.

٣- لقد تميزت الجغرافية بعلاقتها مع البيئة بكل مفرداتها بما فيها البيئة الاجتماعية التي تعبر عن الوسط الذي ينشأ فيه الفرد الذي يحدد شخصيته وسلوكياته واتجاهاته والقيم التي يؤمن بها

٤- ان الجغرافيا عامل مؤثر فى حياة الإنسان منذ بداية ظهوره حتى الوقت الحالي ، فقد أدت الجغرافيا دوراً مهماً فى تحديد الموطن الأصلي للحضارات الانسانية فى أرجاء العالم ، اذ ان الحضارات الاصلية نشأت في بيئات مهدت الطريق لوجود تلك الحضارات .

٥- لقد شغلت العلاقة بين الانسان والبيئة اذهان المفكرين والفلاسفة والباحثين على اختلاف مشاربهم ولمراحل زمنية طويلة ، الامر الذي ولد اراء ونظريات متعددة تاثرت هذه الاراء بالمراحل الزمنية التي عاشها اصحابها.

٦- ان البيئة الجغرافية لبلاد العرب كانت تحتم عليهم تطوير معارفهم الجغرافية لان بلاد العرب احوج ماتكون لتلك المعرفة فالبيئة الجافة تتطلب مزيدا من البحث والتقصي عن موارد المياه والصحراء المترامية تتطلب معرفة بالمسالك والممرات ،كما ان قلة الموارد تتطلب البحث عن مصادر التجارة.

٧- نظرا لأن الجغرافيا من العلوم التركيبية التي تجمع ما بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ، فإنها بهذا تكون الاقدر على تقديم النصائح والارشادات السديدة التي من خلالها تتم معالجة المشكلات العالمية والاقليمية والمحلية على اختلاف مستوياتها وافلمحافظة على مكونات البيئة .

Abstract

The concern for the environment geographical presence to the beginning of man on earth began discovering the geographical areas surrounding it , and learn about their conditions , so it was said human geographer by nature , and since the ancient times and the human search for a permanent advantages of the geographical environment

The objective of the research study and the statement of the most important natural and human factors affecting the geographical thought with ancient civilizations and the statement of the factors that contributed to the

enrichment of geographical thought through the study of environmental factors, natural and human.

Been relying on geographical descriptive and analytical approach in the study of many of the developments and changes that accompanied the historical development of the science of geography. Regarding the sources of the study has been to rely on official sources and references and researchers in the field of historical evolution of the humanities , as well as translated from Arabic references geographic poles in Western countries.

The structure of the research, the necessary scientific research is divided into several themes , taking the first axis evolution of social thought in ancient civilizations , including the indigenous civilizations and cultures derivatives thereof , while the second axis has focused on the growth and evolution of thought geographical among Arabs and Muslims . Either third axis dealt relationship Geography environment with all its components . It has been shown through research subject of geography , like any other science for a lot of change and development and also suffered from different scholars and thinkers in the lack of precise definition , function and concept, but we find that each group of scientists and thinkers definition of geography . As it turns characterize the geographical relationship with the environment in all its vocabulary including the social environment that reflect the center , which arises where the individual who determines his character and behaviors , trends and values that believes in it.

As is clear from the research that contributed to the Islamic Sharia in shaping the geographical thought among Muslims through the acts of worship that are associated with certain times of the day and year, as well as a rite of Hajj encouraged to move from one place to another and exchange of knowledge among the peoples of the globe.

## هوامش البحث ومصادره

❖ للمزيد حول مفهوم المنهج ينظر :

علي محمد دياب ، دور مناهج البحث العلمي العامة المعاصرة في تطويرنظرية الجغرافية البشرية ، مجلة جامعة دمشق ، المجلد (26) العدد الأول، 2010

(١) يمني طريف الخولي ، فلسفة العلم في القرن العشرين : الأصول .المصادر .الآفاق المستقبلية ، سلسلة عالم المعرفة (٢٦٤) ، الكويت ، ٢٠٠٠، ص ١٤ .

(٢) حربي عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ٢٠٠٥ ، ص٦٠

(٣) محمد صبحي عبد الحكيم ،الجغرافية العامة ،دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص٨

(٤) صلاح الدين الشامي ، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة ، منشاة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٩ ، ص٨٤ .

(٥) صلاح الدين الشامي ، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة ، مصدر سابق ، ص٨٤

(٦) محمد عاطف غيث ، علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية ، 1988 ، ص٥

(٧) محمد محمود محمدين ،الجغرافية والجغرافيون بين الزمان والمكان، الخريجي للنشر والتوزيع ، فهرسة الملك فهد الوطنية اثناء للنشر ، الرياض ، ١٩٩٦ص٢٦ – ٢٧

(٨) محمد محمود محمدين ، مصدر سابق ، ص٢٦ – ٢٧

(٩) عبد الوهاب محمد وهيبة ، مكانة الجغرافية من الثقافة الإسلامية ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٩، ص٨- ٩

(١٠) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، مطبعة السعادة ، ١٩٠٦

(١١) للمزيد ينظر :

عبد الرحمن عباس خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، بيروت ،٢٠٠٧ .

(١٢) صلاح الدين الشامي ، الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية ، منشاة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٩ ، ص٨.

(١٣) يسري الجوهري ، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ، الإسكندرية ، ١٩٧٦ .

(١٤) شاكر خصباك ، في الجغرافية العربية ، ط١ ، مطبعة دار السلام ، بغداد ١٩٧٥ ، ص ٢٦٨.

(١٥) مقدمة ابن خلدون ، المطبعة الشرقية ، ١٣٣٧هـ ، ص٢٧٠

(١٦) نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، سنة ١٩٨٢،ص١٧-١٨

(١٧) محسن عبد الصاحب المظفر ، فلسفة علم المكان (الجغرافيا) ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٥ ، ص٢٣- ٢٤.

(١٨) ج٠ ر٠ كرون ، اعلام الجغرافية الحديثة ، ط١ ، ترجمة د٠ شاكر خصباك ، دار المعارف ، بغداد ، ١٩٦٤ ، ص ٧٢ ٠

(١٩) فؤاد محمد الصقار ، دراسات في الجغرافية البشرية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٨١ ، ص ٢١ .

(٢٠) روجر منشل ، تطور الجغرافيا الحديثة ، ترجمة محمد السيد غلاب دولت احمد صادق ، الطبعة الاولى ، مصر ١٩٧٣ ، ص١٣٣ –١٣٥ ٠

(٢١) عبد الهادي محمد والي ، التنمية الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية ،الإسكندرية، ١٩٩٢، ص ٥٠.